فـــن المغالطـــة!!.

حوار:

بقلم: احمد طلعت المحامى

تجمعنى ببعض رموز الفكر الناصرى صداقة وطيدة، رغم إختلافى معهم في الرأى حول كثير مما جرى فى مصر خلال فترة الحكم الناصرى، لكن هذا الخلاف فى الرأى لم يكن - فى يوم من الايام - قيدا على علاقة المعزة والاعزاز. ومعظم الخلاف يدور - من وجهة نظرى - حول قضية الديمقراطية فانا انتمى الى جيل لايعرف طريقا لحكم بلد من البلاد الا طريق صناديق الانتخاب، جيل لا يؤمن بنظرية المزايا الشخصية والقدرات «الخارقة» لشخص من الاشخاص، وانما يؤمن بضرورة العمل الجماعى من اصحاب الفكر المتقارب على الساحة السياسية من اجل الحصول على تأييد الاغلبية لهذا الفكرة عن طريق الرأى الحر، والارادة الطليقة من كل قيد فيما عدا قيود القانون، التى هى - منذ البداية - ارادة الاغلبية صيغت فى مواد وفى نصوص، مما يكسبها الشرعية ويمنحها قوتها الآمرة.

ولقد تجادلت طويلا مع الاصدقاء الناصريين حول فكرة الديمقراطية، وكيف انها ترفض - منذ البداية - القبول بحكم الفرد مهما كانت مواهبه، والحكم الشمولى مهما كانت دوافعه، لذلك فان الرفض ليس رفضا لشخص بذاته وانما رفض لفكرة الحكم الفردى من اساسها. واعترف بانني - من خلال هذا الجدل لم اكن اقتنع بالحجج الناصرية التى تقول بان بعض «الافراد» قد تتجسد فيهم آمال شعوبهم، اويتحولون الى تعبير عن ارادة هذه الشعوب، يحسون نبضها ويقررون نيابة عنها، وهى النظرية التى تبناها - ودافع عنها باقتدار - الصديق الكبير الاستاذ محمد حسنين هيكل، لان هذه النظرية بفرض صحتها - استثناء - يحمل مخاطر واحتمالات انطباق «القاعدة» وهى احتمالات اكبر واهم.

وفى فترة الاعداد لقيام الحزب الناصرى، وجمع توقيعات المؤسسين للحزب الجديد اتصل بى بعض الاصدقاء الناصريين، عن حسن ظن اشكرهم عليه، لكى انضم اليهم فى تاسيس الحزب الجديد، بل ان احدهم قد تحمل مشقة زيارتى بمنزلى ليترك لى استمارة التأسيس مصحوبة بعبارات رقيقة تستحق كل الشكر والعرفان. لكننى اعتذرت عن عدم الانضمام الى جماعة المؤسسين على اعتقاد - ربما كنت مخطئا فيه - بان الذين مارسوا الحكم الشمولى بكل مافيه من تجاوزات، ليسوا هم الذين يستطيعون بناء الحكم الديمقراطى او الدفاع عنه. فالمنطق ليس واحدا، والنتائج بالضرورة لن تكون واحدة..!!.

ولقد حاول الاصدقاء اقناعى بان الزمن قد تغير وبان عبد الناصر نفسه كان ينوى ان يتحول بنظامه الى الديمقراطية والتعددية، لكن فترة «التحديات» التى فرضت عليه «!!» اجبرته على ان يعيد ترتيب الاولويات، وان يؤجل عملية التحول الديمقراطى الى مابعد «قهر» هذه التحديات فالديمقراطية تستطيع ان تنتظر لكن الاحتلال الاسرائيلى - مثلا - لايمكن ان ينتظر..!!.

والحقيقة اننى لم اقتنع بهذه الحجة او اوافق عليها، فانا لا ارى اى علاقة بين التحديات وبين نظام حكم يقوم على ارادة اغلبية الشعب، لان هذه الاغلبية هى التى ستواجه هذه التحديات، وهى التى ستخوض المعارك، فمن حقها الطبيعى ان تقول متى.. وكيف.. هذا بالاضافة الى ان الديمقراطية لم تكن فى يوم من الايام حائلا بين اى شعب وبين تحقيق اهدافه، فالديمقراطية كانت خلال الحرب العالمية الثانية موجودة فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، فلم تمنع او تؤخر انتصار الحلفاء، وكانت غائبة فى المانيا وايطاليا فلم تقدر الانظمة الشمولية على تحقيق اى انتصار..!!.

وعندما اطالع اليوم كتابات بعض الاقلام، يزداد ايمانى بان الديمقراطية لايدافع عنها الا الديمقراطيون، وبان «العقلية» الشمولية ليست هى العقلية التى تدافع عن الديمقراطية إلا من منظور واحد هو امكانية العودة الى الحكم عن طريق صناديق الانتخاب، مادامت بقية الطرق للوصول الى الحكم مغلقة فى وجهها. والمتتبع لما تنشره هذه الاقلام يجده فى معظمه دائرا حول موضوع واحد هو المقارنة بين زيد وعمرو، وزيد هو عبد الناصر اما عمرو فهو السادات«!!» مع ان المقارنة الحقيقية يجب ان تكون بين انظمة الحكم الشمولى وانظمة الحكم الديمقراطى، اى بين صناديق الانتخاب وبين مدافع الدبابات واجهزة المخابرات..؟؟

بل ان بعض الكتاب يكونون خليطا عجيبا من اقلام تدافع عن الشيء بنفس «المقدرة» التى تدافع بها عن ضده، الى جانب كتاب اكلوا على كل الموائد - داخل مصر وخارجها.

وهكذا فى نظر بعض الاقلام السادات خائن لانه تعاون مع روجرز وكيسنجر لكن عبد الناصر وطنى عندما تعامل وتعاون مع خروشوف وبرجينيف، وحرب اليمن الدائرة الآن بين شماله وجنوبه هى حرب من اجل مصالح دول اجنبية، لكن حرب اليمن التى اعلنها وخسرها وانسحب منها عبد الناصر بارادته المنفردة كانت من اجل «القومية العربية»، والامن القومى العربى، الى آخر هذه التعبيرات التى يجيد الناصريون استخدامها، والحرب ضد الإرهاب اهدار للحرية وحقوق الانسان لكن زوار الفجر واحداث «كمشيش» ومحاكمات الاخوان عام ٦٥ واعدام قادتهم كان من اجل الدفاع عن الحرية وعن حقوق الانسان..؟؟ والاحكام العرفية الآن انتكاسة ديمقراطية لكنها كانت فى عهد عبد الناصر ضرورة وطنية«!!».

ونصيحتى لهؤلاء الكتاب - ومنهم اصدقاء اعزاء - هى ان يفهموا ان هناك قضية واحدة يجب ان تجتمع حولها كل القوى الوطنية هى قضية الديمقراطية اما تصفية الحسابات القديمة، والمفاضلة بين زيد وعمرو فهى قضايا مضى وانقضى زمانها.